

نساء وحيتان !

يجب أن أبدأ بمصارحة القارئ ، فأننا أقدم له كتابا (دعائيا) ،
لقد ارتبطت كلمة - الدعاية - عند جانب كبير من الناس بالافتقار
إلى الموضوعية ، جريا وراء الإثارة ، وبالمبالغة ابتغاء إحداث تأثير
مطلوب ؛ ولكنها كلمة مظلومة ، لا ذنب لها في أنها استخدمت -
وتستخدم - في أغراض تثير الشكوك ، فهي - أساسا - تحمل
معنى الدعوة إلى مناصرة أحد جوانب قضية محددة ، اعتمادا على
وسائل التأثير المتاحة ، وأهمها الحقائق الواضحة .

ولولا أن هذا الكتاب(*) الذى أقدمه لك الآن يلتزم بهذا المفهوم
لمعنى الدعاية ، لوضعتة جانبا ، ولما أقدمت على قراءته أصلاً ،
إنه - بتركيز شديد - يقدم الجانب الآخر من الحقيقة ، ولا تخلو
فكرته من طرافة ، فبالرغم من أنه يهتم بقضية بيئية ، هي علمية
بالدرجة الأولى ، إلا أنه يقدم أسانيده في صورة قصص تحكيها

Women's Tales of Whaling.

(*) العنوان الأصلى للكتاب :

Life Stories of Japanese Women Who Live with Whaling.

محررة الكتاب : دكتورة جيونيشى تاكاهاشى .

الناشر : اللجنة اليابانية لصيد الحيتان - طوكيو - اليابان - ١٩٨٨ .

النساء اليابانيات من زوجات ضائدى الحيتان ، أملاً فى أن تجد طريقها سهلاً إلى رأى العام العالمى ، الذى تم شحنه بالتحذير والتخويف من انهيار ونفاد بعض الموارد الطبيعية - وبينها الحيتان - وبضرورة العمل من أجل صونها ، ومن أجل الوصول إلى هذا الرأى العام العالمى ، جاء الكتاب فى لغتين ، اليابانية والانجليزية ، وها نحن نعرضه لقارئى العربية .

تقول كاتبة المقدمة لهذا الكتاب ، وتعمل مترجمة مصاحبة للوفد اليابانى فى اللجنة العالمية للحيتان ، إن فكرة قيام مجموعة من النساء اليابانيات بتأليف هذا الكتاب ، جاءت للرد على تواجد عدد كبير من السيدات الأوربيات والأمريكيات ومشاركتهن بحماس شديد فى أعمال الجماعات واللجان الرسمية والأهلية التى تدعو إلى صون الحيتان ، والتى يصل الحماس فى دعوتها إلى درجة توحى بأن إنقاذ الحيتان يعنى إنقاذ الكون من الخراب .

وتعتب الكاتبة على السيدات المشاركات فى تلك الجماعات تجاهلهن لمجتمعات يابانية كاملة ، تقوم فيها الحياة على أنشطة صيد الحيتان ، ويقع العبء الأساسى فيها على المرأة اليابانية التى تتمتع بخبرات متوارثة ومهارات تمكنها من صون كل جزء من أجزاء الحوت ، لصالح أسرتها ومجتمعها ؛ فليس ثمة من يعرف قيمة الحوت ويحرص عليه ويصونه أكثر من اليابانيات .

وتبدو اليابان فى الخريطة طافية فوق صفحة المحيط الهادى ،

فهى لا تستطيع إلا أن تظل شديدة الارتباط بالمحيط ، ويقول اليابانيون : إن البحر بالنسبة لهم مثل البرارى بالنسبة للأمريكان ؛ فتلك الصحارى الشاسعة هى التى أوجدت نموذج راعى البقر الأمريكى ، وأمدت المجتمع الأمريكى منذ نشأته بحيوانات المراعى ، وتقول إحدى المشاركات فى الكتاب ، إن رعاة البقر يلقون كل احترام ورعاية من مواطنيهم وحكوماتهم ، ويمثلون جزءاً من التاريخ الأمريكى والثقافة التقليدية الأمريكية ، يحرصون على صونه وتسجيله فى متاحفهم ومراكزهم الفولكلورية وشرائط السينما . وقد فعل اليابانيون نفس الشيء ، خرجوا إلى (صحرائهم) ، إلى البحر ليصطادوا الحيتان ، وليصنعوا من هذا النشاط تاريخاً طويلاً وتقاليد راسخة ، وكانت البداية فى مطلع القرن السابع عشر ، الذى شهد تحول نشاط صيد الحيتان من محاولات فردية إلى صناعة حقيقية ، وفى نهاية ذلك القرن ، استخدم اليابانيون شباك الصيد الشراكية ، بعد أن كانوا يعتمدون على الحراب التقليدية ، فأمكنهم الإيقاع بأنواع الحيتان الضخمة ، مثل الحوت الصحيح ، والحوت الأحدب ، وحوت الزعنفة .

وكان ناتج الصيد بالوسائل التقليدية يغطى احتياجات عائلات الصيادين ومجتمعهم المحلى ، فلما وقعت الحيتان الضخمة فى الشباك الشراكية ، فاض الإنتاج من لحوم وزيت الحيتان ، وانتشر فى المدن الكبيرة ، وبدأ المجتمع اليابانى ، المعروف بتقديسه للتقاليد ،

يضيف إلى تقاليد الطعام والمائدة ملامح جديدة خاصة بلحوم الحيتان ، لم تلبث أن ترسخت فى الثقافة التقليدية اليابانية ، من هنا - تقول إحدى المشاركات فى الكتاب : إن تحريم صيد الحيتان لا يقتصر مردوده المؤسف على اقتصاديات الأسر العاملة بالصيد فقط ، إذ لا يمثل الصيد مجرد مهنة ، بل ميراث تقليدى ممتد عبر أجيال عديدة ، لذلك فإن حرمان الأسر اليابانية التى اشتهرت بصيد الحيتان من مهنتها التقليدية يعد تدميراً لثقافة مجتمع .

وبالرغم من أن اللجنة العالمية لصيد الحيتان متعددة الجنسيات ، فإن الكتاب يضع الأمريكين وحدهم فى المواجهة ، ويوجه إليهم اللوم بل الاتهام ولا يبدو ذلك غريباً إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان بكل ملاساتها . ويؤكد الكتاب على أن اليابانيين لم يكونوا وحدهم (ينهبون) ثروات المحيطات من الحيتان : ففي القرن التاسع عشر ، اجتذبت مصايد الحيتان اليابانية أساطيل الصيد الأمريكية التى ظلت تستغلها زمناً طويلاً ، حتى أنهكت المخزون الطبيعى من الحيتان فى المياه اليابانية ، وتروى واحدة من زوجات الصيادين اليابانيين قصة عن تأثير ذلك الغزو الأمريكى للمصايد اليابانية فتقول : إن اليابانيين - أمام سطوة الأسطول الأمريكى - عجزوا عن الصيد ، وساءت أحوالهم ، وفى يوم من ديسمبر ١٨٧٨ ، لاح فى الأفق حوت ضخم من النوع المعروف باسم (الصحيح) ،

وكان يتبعه طفله ، وثمة مقولة متوارثة لدى صيادى الحيتان تقول : إياك أن تحلم - مجرد حلم - بأن توقع بحوت صحيح يصطحب طفله ، ولكن تحت ضغط الجوع ، خرج إليه الصيادون بالحرايب والشباك ، بالرغم من برودة الجو ، وبالرغم من التحذير فى تلك المقولة الحكيمة ، ونجح الصيادون فى قتل الحوت ، بعد معركة شرسة أنهكت قواهم ، وأفقدتهم أكثر من مائة رجل .

وفى مفتتح القرن العشرين ، كان على اليابانيين مساهمة التطور فى مجال صيد الحيتان ، فاستوردت المؤسسات اليابانية الوسائل الحديثة التى تعتمد على السفن الضخمة المزودة بالمعدات المتطورة لصيد الحيتان وتجهيزها قبل الوصول إلى اليابس ، والتى مكنت اليابانيين من منافسة سفن الصيد البريطانية والألمانية والنرويجية العاملة فى المحيط الجنوبى .

هنا يأتى الكتاب إلى لب القضية ، من وجهة النظر اليابانية طبعاً ، فيشير إلى أن السفن الغربية كانت تصطاد الحيتان من أجل زيوتها ؛ أما اليابانيون ، فقد كان هدفهم اللحم مع الزيت . فلما قلَّ طلب الغرب للزيت ، نتيجته لظهور البدائل الصناعية والمشتقات الصيدلانية التخليقية ، تضاءلت أهمية صناعة صيد الحيتان فى الدول الغربية ، بينما احتفظ اليابانيون/بشغلهم بلحوم الحيتان ،

فاستمروا فى أعمال الصيد ، وفجأة - كما يقول اليابانيون - استيقظ وعى أنصار حماية البيئة فى الدول الغربية ، وارتفعت أصواتهم تدعو إلى صون الثدييات البحرية ومنها الحيتان ، بالرغم من الحقائق العلمية التى يقدمها علم المصايد البحرية فى هذا المجال .

ويتخذ هذا العلم من الحوت الأزرق - أضخم أنواع الحيتان ، بل أضخم الكائنات الحية المعاصرة على الإطلاق - وحدة قياسية لتقدير حجم المصيد من الحيتان ، وتؤكد الاحصائيات على أن محصول الصيد اليابانى فى موسم ١٩٨٧/٨٦ ، من مياه المحيط الجنوبى لم يزد على ١٩٤١ حوتاً من نوع المنك ، وهذا العدد يساوى ١٩٤ وحدة حوت أزرق ، وهو رقم ضئيل إذا قرون بإنتاج اليابانيين فى موسم ١٩٦٢/٦١ ، الذى بلغ ٦٥٧٤ وحدة حوت أزرق ، وتزداد ضآلته عند مقارنته بمجمل نشاط الصيد العالمى فى الموسم ١٩٦١/٦٠ (وصل إلى ١٦٤٧٧ وحدة حوت أزرق) ، وواضح أن الكتاب يهدف من وراء إثبات هذه الأرقام فى مثنه إلى تسريب إشارة إلى رأى العام العالمى بأنه إذا كان ثمة اتهام ، فليس لهم وحدهم .

والجدير بالذكر أن تعداد حيتان المنك فى المحيط الجنوبى يبلغ ٤٤٠ ألف حوت ، منها ٢٩٠ ألفاً قادرة على التوالد ، بما يعنى أنها فى تزايد مستمر ؛ وبالتالي فإن نشاط الصيد المنظم الخاضع

للسيطرة والمراقبة لا يمكن أن يوقع بهذا النوع من الحيتان تأثيرات خطيرة .

وتعتبر واحدة من المشاركات فى الكتاب عن هذه الحقائق العلمية بطريقة (نسائية) فتقول : إن الحيتان تعيش فى المحيطات متحررة من أى سيطرة ، وتعطيها الامتدادات اللامحدودة للمياه قدرات هائلة على التجدد وتعويض الفاقد منها ، بعكس حيوانات المراعى الأرضية التى إذا تعرضت لوباء أو لكارثة طبيعية نفقت ، وأصبح على أصحابها القيام بجهد ضخم لإعادة أعمار مزارعهم أو مراعيهم ، وتقول أيضاً : إن الأهم من كل النظريات العلمية الإدراك التام لدى صيادى الحيتان أنفسهم بأهمية المحافظة على تجمعات الحيتان ، وتيقنهم من أن عدوهم الأول هو تعرض هذه التجمعات لخطر التدهور ، وأن استمرار حياتهم معلق باستمرار تجمعات الحيتان مزدهرة فى محيطات العالم .

وقبل أن نعود إلى الكتاب لنرى كيف تتحدث اليابانيات إلى الرأى العام العالمى ، نلخص (طلبات) الجانب اليابانى الذى يرى أن العدالة تقتضى إعادة تقدير حجم تجمعات الحيتان فى بحار ومحيطات العالم ، ويثق اليابانيون فى أن الدراسة العلمية الآمنة ستعطى تقديرات تساعد على اتخاذ قرار بإعادة الحياة إلى أعمال صيد الحيتان ، كما يأمل اليابانيون أن يستثنى من قرار الحظر أعمال الصيد فى المياه اليابانية الساحلية ، حيث يستخدم الصيادون الوسائل

التقليدية المحدودة الكفاءة ، مثل القوارب الصغيرة والحرا ب ، فى صيد أنواع صغيرة من الحيتان ، مثل الحوت الدليل والحوت ذو المنقار ، بالإضافة إلى خنازير البحر ، وهى كائنات شبيهة بالدلافين .

والحقيقة أن كل ما سبق هو خلاصة (دفاع) اليابانيات المشاركات فى هذا الكتاب المحكم الاعداد ، والذي يصعب أن ينتهى عرضه عند هذا الحد ، دون أن نستمع إلى جانب من أحاديث بعضهن وحكاياتهن عن ذكرياتهن وحياتهن فى مجتمع يعيش على الحيتان :

فهذه (يوشيكو) ، زوجة صياد حيتان ، تنتمى إلى عائلة (الوادا) مؤسسة صناعة صيد الحيتان فى مدينة تايجى فى بداية القرن ١٧ ، تحكى عن ابنتها التى أثرت فيها دعاوى أنصار البيئة ، فعادت من المدرسة ذات يوم باكىة ، فقد رأت الصيادين يقتلون الدلافين ، والعجيب - كما تقول يوشيكو - أن ابنتها تعرف أن أباهما صياد حيتان سابق ، وأن لحم الحيتان هو الطبق المفضل لها .

أما (فيوميو) ، فهى من مدينة أيوكاوا التى كانت محطة أرضية لاستقبال الحيتان المصيدة ، ومركزاً لتموين السفن ، وكان جدها مالكاً لشركة تمد تلك السفن بالفحم والمياه ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تحولت السفن إلى استخدام آلات الديزل ، فأغلقت الشركة أبوابها ، بالإضافة إلى أن الحرب كانت قد أتت

على معظم رجال الأسرة ، وبانتهاء الحرب ، عاد نشاط صيد الحيتان لتوفير الطعام لآلاف الأسر التي أنهكتها الحرب ، وتفنن اليابانيون في وسائل الاستفادة من لحم الحوت وجلده وأحشائه ، وحصلت « فيوميو » على وظيفة في مكتب بريد المدينة ، حيث تتيح لها وظيفتها مراقبة حركة القادمين والمغادرين للمدينة ؛ وقد تأكد لديها أن العديد من الأسر التي كانت تعتمد على صناعة صيد الحيتان قد تركت أبو كاوا بعد أن فقد عائلوها وظائفهم نتيجة لقرار حظر الصيد .

أما (كيكو) ، فتحكى عن زوجها الذى كان يمتلك قارباً لصيد حيتان المنك ، ويقضى معظم الوقت فى عمله ، حتى أن أطفاله كانوا ينكرونه عندما يقوم بزيارات خاطفة للمنزل ، وكان مؤلماً للجميع أن يقول له أحد أطفاله : « عد إلى القارب ، فلا مكان لك هنا » ، ولكن حظر صيد الحيتان - كما تقول كيكو - كان أشد إيلاًماً وقسوة على حياة الأسرة ، فقد فقدت مورد رزقها .

وكان ضرورياً أن تتحدث فى الكتاب خبيرة فى لحوم الحيتان ، هى السيدة (ميساو) ، التى تقول : إن مذاق لحم الحوت يختلف من نوع لآخر ، وأن لحوم الحيتان الكبيرة أفضل من لحوم اليافعة ، واللحم الأحمر الناصع أفضل من الداكن ، وتقول : إن عدد العاملين فى صناعة صيد الحيتان ضئيل ، ولا يكاد يذكر فى

عالم اليوم ، ولكن ثقافتهم يجب أن تحترم ، وتحدد قائلة : « إنه لسلوك بربرى أن تدوس الأغلبية على اهتمامات الأقلية » .

لما أطرف حكايات الكتاب وأكثرها تلونا بالعاطفة فتحكيها الفتاة (يوكو) ، التى كتبت موضوعاً إنشائياً حصلت به على جائزة وزير التعليم اليابانى ، وتحكى فيه قصة جدتها التى ارتبطت حياتها بالحيثان كمصدر رئيسى للطعام ، وقد مرضت الجدة ، وكانت الحفيدة تسألها فى كل زيارة لها : ماذا أحضر لك يا جدتى فى زيارتى القادمة ؟ ، فترد الجدة : لحم الحوت ، وتجد الحفيدة صعوبة كبيرة فى توفير طلب جدتها الآن ، بعد قرارات حظر الصيد فى عام ١٩٨٨ ، تقول « يوكو » : أنا لا أفهم فى أمور الاتفاقيات العالمية ، ولكنى أريد أن أوفر الطعام الذى يسعد جدتى ويعينها على الشفاء ، إنه لحم الحوت - فمن أين لى به ؟ .

وتحكى (ماتسوكو) ، تحت عنوان (ليس بمقدور أحد أن ينتزع ثقافتنا الغذائية) ، عن المطعم الذى كانت تمتلكه وتديره بنفسها ، وكان يقدم أطباقاً مبتكرة من لحم الحيثان ، لقيت إقبالاً كبيراً ، وتقول : إن (كارثة) حظر صيد الحيثان أدت إلى مزيد من إقبال الناس على لحومها ؛ إذ يزداد تردد الزبائن على مطعمها ، ليس فقط من أجل تناول لحوم الحيثان ، ولكن - أيضاً - لمراقبة وتسجيل تقاليد الطهى وفنون تقديم الأطباق على المائدة ، وتؤكد « ماتسوكو » أنها لا تدافع عن تجارتها الخاصة ، ولكن عن

تقاليد وثقافة يابانية راسخة ، وهي تعتقد أن أمريكا هي التي تقف وراء حرمان اليابانيين من لحوم الحيتان باتخاذ قرار حظر الصيد ، وتقول إن أمريكا قد تكون لديها القوة لتحرم اليابانيين من صيد الحيتان ، ولكنها تعجز عن انتزاع ثقافتنا التقليدية الخاصة بالطعام . وقد اضطلعت السيدة (ساكيكو) ، بنقل القضية إلى الساحة الأكاديمية ، فهي حاصلة على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية ، وكان عنوان رسالتها : « السياسات الدبلوماسية اليابانية في مسألة الحيتان » تقول : إن قضية حرمان اليابان من نشاط صيد الحيتان لا تحظى بالاهتمام الكافي من الحكومة اليابانية ، فصناع القرار والمسؤولون التنفيذيون في الإدارة اليابانية لا يستمرون في مناصبهم لأكثر من ثلاث سنوات ، فلا يتوفر لهم الوقت لدراسة المشكلة وإيجاد سبل لمعالجتها ، كما أن الشعب الياباني نفسه يقع عليه بعض اللوم ، لأنه لم يتحرك بما فيه الكفاية لشرح قضيته ، على عكس جماعات أنصار البيئة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، فهي جماعات مؤثرة في مراكز صنع القرار والإدارات السياسية ، وهي ترى أن لكل من اليابان والغرب وجهة نظر مختلفة حول معنى (الطبيعة) - فاليابانيون يرون أن الإنسان جزء جوهري من الطبيعة ، وهو أمر يغفله الغربيون ، وترى أن مسألة الحيتان هي في حقيقتها ، صدام بين ثقافتين ، وأن اليابانيين عجزوا عن التعبير عن وجهة نظرهم في المؤتمرات الدولية ، لقصور في

امكانياتهم اللغوية ، ولعدم تحمس الآخرين للتعرف على الجوانب المتعددة للمشكلة .

وبالرغم من أن مشاركة السيدة (يوكو) ، لا تأتي في نهاية الكتاب ، إلا أننا ننهي بها عرضنا له ، وتعمل « يوكو » اختصاصية تغذية في المدارس ، وقد لاحظت أن التلاميذ يبتهجون في اليوم الذي تحتوي فيه قائمة الغذاء على لحم الحيتان الذي أصبح نادر الوجود ، وقد قرأت « يوكو » كتاباً جاء فيه إن الولايات المتحدة الأمريكية التي تنزع الدعوة إلى صون الحيتان وحظر صيدها حالياً ، كانت أكبر دول العالم استغلالاً لمصايد الحيتان ، وتزعمت « يوكو » حركة وطنية ضد حظر صيد الحيتان ، ولكنها لم تجد الصدى المناسب ، فالحكومة لا تستجيب ، ومصالح رجال الاقتصاد والصناعة اليابانيين تدفعهم إلى عدم الاستجابة لمثل هذه الأفكار ، حرصاً على الأسواق الأمريكية .

وفي عام ١٩٨٦ ، حذفت وزارة التعليم لحم الحيتان من قائمة تغذية تلاميذ المدارس ، فقامت « يوكو » بتأليف كتاب عنوانه (جزيل الشكر للحوت) ، أحدث ردود أفعال جيدة ، فدعتها لجنة برلمانية لتحدث أمامها عن القضية ، فذهبت وقالت لهم إن لحم الحوت يجب أن يعود لقوائم تغذية التلاميذ اليابانيين ، لأنها - كاختصاصية تغذية - تؤمن بأن حاجة البشر للغذاء لا تتوقف عند مجرد حصولهم على الطعام ، ولكنها يجب أن تكون مصحوبة بتلبية احتياجات أخرى معنوية ، شديدة الارتباط بهذا الطعام .